موضوعات شعر الرثاء في القصيدة الجاهلية: دراسة نقدية

Topics of Lament in The Preislamic Poem: Critical Study

د.إبراهيم صالح إدريس أبوبكر

Ibrahim Salih Idriss Abu Baker

السودان/ جامعة الجزيرة/كلية التربية الحصاحيصا/ قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية/ أستاذ الأدب والنقد المشارك

ibrahemsalh200@gmail.com

المستخلص

يعد الرثاء من الموضوعات البارزة في الشعر العربي عبر العصور المختلفة، وقد كان لكل عصر من العصور مراثيه الخاصة به والتي تتمتع بخصائص معينة تميزها عن غيرها من الأشعار، ومراثي العصر الجاهلي متعددة الموضوعات والخصائص وشارك فيها النساء والرجال والعامة والخاصة. هدفت الدراسة لمناقشة موضوعات الرثاء في العصر الجاهلي. دراسة نقدية تحليلية لشعر الرثاء ودلالاته وقيمه .اتبعت الدراسة المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي، وجمعت النصوص الخاصة بموضوع الدراسة من مصادر الأدب والنقد ذات الصلة بموضوع الدراسة. خلصت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها: تنوع موضوعات شعر الرثاء في العصر الجاهلي؛ وذلك بتنوع الشخص المرثي الذي فقده الشاعر الراثي؛ رثاء الابن كان شديد التأثير في النفس الإنسانية؛ وذلك لما يحمله من عواطف صادقة صادرة من قلب الأم والأب؛ في رثاء الأخ تظهر صور الحزن والأسى والألم والحسرة؛ في رثاء الجاهليين عدم تبديل الحقائق وإيرادها كما هي، وعدم استخدام الصور إلا إذا كانت تخدم توضيح المعني؛ استعان الشعراء ببعض المحسنات اللفظية والمعنوية للتأثير بسامعيهم؛ شعر الرثاء أغلبه ذاتي يعبر عن وقائع حقيقية ومعانيه ملموسة؛ أظهر شعراء الرثاء البكاء كصورة تعبيرية عن آلامهم النفسية لمن فقدوا. توصي الدراسة بالبحث عن مظاهر الرثاء في العصرين الجاهلي والإسلامي. دراسة مقدمات قصيدة الرثاء في الشعر الجاهلي. توضيح صور الرثاء في العصر الإسلامي ومقارنتها بالجاهلي لإظهار أوجه الاتفاق والاختلاف في كل.

الكلمات المفتاحية باللغة العربية: موضوعات، الرثاء، القصيدة، الجاهلية.

Keywodrs: Topics, lament, poem, preislamic.

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ومن اهتدى بهديه واقتفى أثره بإحسان إلى يوم الدين. أمَّا بعد:

فإنّ الرثاء أو بكاء الأحبة عاطفة من أصدق العواطف الإنسانية على مر الدهور والعصور، ويتصل بقضية الإنسان والزمن، ورثاء الشعراء لمن مات من أحبابهم، أو العظماء من قومهم وممدوحيهم، حيث نجد الشعراء يقدمون لهم رثاء يرسمون من خلاله صورة لإنسان يستحق الحزن على موته والجزع من أجلهم فهم بذلك يخاطبون عزيزاً فارق الحياة أو ملكاً كان ملء السمع والبصر أو دار دارت عليها عوادي الزمن يقول حاتم الطائي[1].

إنَ البخيل إذا ما مات يتبعه ... سوء الثناء ويحوي الوارث الإبلا
فاصدق حديثك إنّ المرء يتبعه ... ما كان يبنى إذا نعشه حُملا

أهداف البحث:

١. توضيح موضوعات شعر الرثاء في العصر الجاهلي.
٢. إظهار المناقب والفضائل المستنبطة من المراثي.
٣. التحليل النقدي لقصائد الرثاء.
٤. دراسة مضامين قصيدة الرثاء في العصر الجاهلي .
٥. أبراز قيم الرثاء وقدرته على تحقيق القيم الإنسانية.

مشكلة البحث:

الكشف عن موضوعات شعر الرثاء في العصر الجاهلي وتوضيح ذلك بنماذج شعرية دالة تبين حقيقة فن الرثاء وأثره على العامة والخاصة.

منهج البحث:

سلك البحث على المنهج الوصفي التحليلي الاستقرائي في دراسته لموضوعات شعر الرثاء في العصر الجاهلي.

(١) حاتم الطائي، ديوانه، شرح ونقديم، أحمد رشاد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ص:٦٤.

هيكل البحث:

قسمت الدراسة إلى مبحثين المبحث الأول بعنوان: مفهوم الرثاء وتطوره. والثاني: اتجاهات قصيدة الرثاء في العصر الجاهلي. ويسبق ذلك مقدمة ويتلوه خاتمة موشحة بالنتائج والتوصيات.

مفهوم الرثاء

الرثاء ظاهرة طبيعية في آداب الأمم، وتكاد تكون معالمه واحدة فيها ،لأنه التعبير الحقيقي عن العواطف البشرية ،وهي على أشد حالة من التوتر والتأثر . وقد حفل الأدب العربي بصورة رائعة من صور الرثاء، رسم فيها الشعراء أحاسيسهم وبكوا مَنْ رحل من دنياهم بأفجع ما يصل إليه التعبير، ليدللوا بذلك على عظم المصاب، وجلاء الرزء.

مفهوم الرثاء:

الرثاء مصدر للفعل (رَثَى)، فيُقال: رثيت الميت رثياً ورِثاءً ومرثاة ومرثية، إذا بكيته بعد موته، ورَثَى له أي رقَّ له وتوجَّع، ويُقال: ما يرثى فلان لي أي ما يتوجع ولا يبالي، فإن مدحته بعد موته قيل: رثاه، يرثيه، ترثية: مدته بعد الموت وبكيته، ورثوت الميت ايضاً إذا بكيته وعددت محاسنه، وكذلك إذا نظمت فيه شعراً[1].

ويدلُّ (رثى) في أصله اللغوي على التوجُّع والإشفاق، يقول ابن فارس: «إنّ اجتماع الراء والثاء والحرف المعتل أصلي في الثلاثي ويدلّ على رِقة وإشفاق، يُقال: رثيتُ لفُلان أي رققت»[2]. ويُقال: رثى يرثي رثاء، أخذته المشقة على لب الشيء[3].

الرث: الرث والرثه والرثيث: الخلِق البالي من كلِّ شيء وتقول ثوبٌ رث وجبل رث ورجل رث الهيئة في لبسه وأكثر ما يستعمل فيما يُلبس والجمع رثاث وأرث الصوب أي أخلق والمرتث هو الذي يتحمّل في المعركة رثيثاً وبه رمق فيموت فيقال وارتث فلان أي حُمل من المعركة رثيثاً إذا أبكاه بعد موته وقيل رثاه

(١) ابن منظور، جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم الأنصار الأفريقي، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، الثاء، ط١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م، ص١٥٨٢.

(٢) ابن فارس، أو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م، باب الراء والثاء وما يثلثهما، ج٢، ص٤٨٨.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٣٨٤.

يرثيه وترثيه . ورثيت الميت رثياً ورثاءً ومرثاةً ومرثية ورثيته مدحته بعد الموت وبكيته[١]

ورثأ: بمعنى أرثأ اللبن أي خثر، وفي المثل الرثيئة تفتأ الغضب، والرثيئة: اللبن الحامض يُحلب عليه فيخثر، ومنها ارتثأ عليهم أمرهم إذا اختلط[٢]. ومن هنا نرى أنّ المعنى الأصلي لكلمة (رثأ) هو الخلط المادي للاشياء، مما يُظهر التطور المجازي لهذا المعنى في اختلاط الأمور المعنوية عند الإنسان العاقل، وهذا الخلط يعتبر نوعاً من الضعف العقلي الذي يصيبه عندما تُفاجأه إحدى نوائب الدهر ومصائبه، مثل فراق حبيب أو موت عزيز اثير لديه، فيقف عاجزاً عن مدّ يد العون إليه بانتشاله من براثن الموت، أو بنجدته أو دفعه عنه، فتسيل دموعه وتنساب كأنها المطر، أو كأن عيونه قد أصابها المصاب الذي يفقأ العيون من شدة تقريحه إياها[٣]. فيُصاب الإنسان من جرّاء هذا الموقف المؤلم بالضعف في الأعصاب، والانهيار في المقاومة النفسية، بل وتتأثر عقلانيته فيفقد السيطرة، ويبدأ بالتخبُّط والاضطراب لهول الفاجعة، وشدة الانفعال والحزن والألم، ولا يجد متنفّساً إلّا بالبُكاء والصراخ، ومن هنا قيل أنّ الرجل المرثوا: أي الضعيف الفؤاد، قليل الفطنة[٤].

والرثاء يعتمد على الحالة النفسية التي يحسها الإنسان، وهو يستقطب أشتات الحزن، ويستجمع دواعي الرثاء، يستكمل صورة المرثي، ليعد منها اللوحة الفنية التي تتناسب والتجربة التي يعانيها،ومن هذا المنطلق كانت قصائد الرثاء أصدق تعبيرا، وأشد إحساسا من أغراض الشعر الأخرى .

إنّ الشعور بالفراغ الكبير الذي يتركه الفقيد بين أهله، وأخوانه وذويه وأصحابه، سيخلف في نفس الشاعر – وهو أكثرهم إحساسا – مكانا لا يسدّ، وجرحا لا يندمل، والشاعر الجاهلي أدرك حقيقة الموت بكل أبعادها، وأحس بقوته التي ارتعدت لها فرائصه، فبات يخشى المصير، ويخاف النهاية، وقد تمثل الخوف من الموت، والتفكير فيه في الشعر الجاهلي بصور كثيرة ((٥))، على أن الشاعر الجاهلي لم يلتزم بهذه الظاهرة، ويقف عندها الوقفة التي تثير في نفسه اليأس وحده، وإنما حاول أن يعللها بالأسباب التي تهيأت له، وهداه

(١) غازي طليمات، عرفات الأشقر، الأدب الجاهلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢، ص٢٤٢ .
(٢) الزمخشري، جار الله محمود، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، ج١، ص٣٣٧.
(٣) الهروي، محمد بن أحمد بن الأزهري أبو منصور، تهذيب اللغة تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م،، ج٢، ص١٢٣.
(٤) الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، الكويت، د. ت، ج١٠، ص١٤٤.
(٥) عمرو بن كلثوم، ديوانه، الدار المصرية اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م ص:٦.

إليها تفكيره.

إنّ المتتبع لقصيدة الرثاء الجاهلية يجد أنها كانت موزعة بين اتجاهين، يبدو أحدهما امتداداً لقصيدة المديح، وضربا من التعبير عن الإيمان الخفي بخلود الروح . واستمرار حاجتها إلى ما كانت تحتاج إليه في حياتها الدنيوية الأولى، أما الاتجاه الآخر فقد تمثل في ضرب من النواح المعبر عن اللوعة الخالصة، وذلك ما كانت تتولاه النساء عادة ((١)) . على أن الاتجاهين قد يمتزجان في النموذج الواحد، لا سيما إذا ربطت الشاعر بالمرثي صلة اجتماعية قريبة ((٢)) .

أما النماذج التي رثى الشعراء بها أنفسهم فقد بدت في أكثر الأحيان موزعة بين اتجاه النواح وبين مجرى الفروسية القائم على إبراز المزايا الذاتية .

اتجاهات الرثاء في القصيدة الجاهلية :

١- رثاء الإخوة الفرسان :

إذا كان الرثاء تخليداً لإنسان مات، فهو أيضاً تخليد لقيم إنسانية واجتماعياً اقترنت بهذا الإنسان أو أراد لها الشاعر أن تقترن به فكل صفة من الصفات التي يقدمها الشاعر لمن يرثيه تقترن بفضيلة من الفضائل وهي فضائل تمثل البنية الأساسية للإنسان النافع حياً وهي فضائل يذكر بسببها إذا مات(٣).

تطور هذا اللون من الرثاء عند الشعراء الجاهليين في مضامينه من الفخر والحماسة، فقد كانوا يرثون أبطالهم الذين سقطوا في ساحات المعارك والبطولة، ليثيروا القبيلة كي تأخذ بالثأر، وقد أدرك الشاعر الجاهلي قيمة الفقيد، وجسّد أصالة الوفاء، التي يمكن أن يعبّر بها الشاعر لهذا الإنسان الذي قدّم أغلى ما يملك، وأعزّ ما يمكن أن يجود به إنسان.

ويتصف هذا الشعر بالعاطفة الصادقة، والأحاسيس المرهفة، لأنه يصدر عن قلب موجع، وفؤاد ملتاع، وخير مَنْ يمثل هذا اللون من الرثاء متمم بن نويرة اليربوعي الذي رثى أخاه مالكا فقال((٤)) :

قَـــدْ لامَنِي عِنْـدَ القُبُورِ على البُكا ... صَدِيقٌ لِتِذرافِي الدُّمُوعَ السَّوافِكِ

يَقـــولُ أتبكِي كلَّ قَبـــرٍ رأيْتَـــهُ ... لِقَبرٍ ثَـــوَى بَيْنَ اللُـــوى فالدَّكادِكِ

(١)

(٢) بشر بن أبي خازم، ديوانه، تحقيق، مجيد طراد، ط١٩٠٠،١م دار الكتاب العربي ص ١٢٣ا ١٥١ و ١٧٤.

(٣) حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي، مؤسسة المختار، القاهرة ط٢٠٠١،١م، ٣٥٢

(٤) المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، شرح ديوان ديوان الحماسة لأبي تمام ،ط١، دار الكتب العلمية،٢٠٠٣م، ٢/ ٧٩٧ .

فقُلتُ له: إنَّ الشَجِيَّ يَبْعَثُ الشَّجَى فَدَعْـــنِي، فهــذا كُلُّهُ قَبــرُ مَالِكِ[1]

فالشاعر بهذه الكلمات عبّر عن صدق عاطفته الأخوية، التي شملت الإنسانية كلها وكل من يقف في مثل هذا الموقف المؤلم المحزن على فقد الأخ العزيز، والذي كان بمثابة جناحه الآخر الذي يُحلِّق به ليبحث عن رزقه، والذي يحميه من المكاره، فيقول وهو يرسم هذه الصورة البديعة:

وكانَ جَنَاحِي إنْ نَهَضْتُ أقَلَّنِي ويَحْوِي الجَنَاحُ الرِّيشَ أنْ يَتَنَزَّعَا[2]

ومنهم دريد بن الصمة الجاهلي من قبيلة غَزيَّة، الذي خلَّد ذكر أخيه عبدالله في قصيدة رائعة ذات خصائص فنية راقية.. منها قوله يصف مصرع أخيه[3]:

دعاني أخــي، والخيـل بيني وبينه فلمّـــا دعانــي لم يجدنــي بقعْدُدِ
أخ أرضعتنــي أمــه مـــن لبانها بثــدي صفـــاء بيننـــا لـــم يُجددِ
فجئت إليــه، والرمــاح تنوشـــه كوقع الصياصي في النسيج المُمددِ
وكنت كذات البَوِّ ريعـــت فأقبلت إلـــى قطـــع مِـــنْ جلْـــدِ بَوٍّ مُجَلَّدِ
فطاعنْتُ عنه الخيل حتى تنهنهتْ وحتى علانــي حالك اللـــون أَسْوَدِ
قتـــال امرئ آســـى أخاه بنفسه ويعلـــم أن المـــرء غيـــر مُخَـــلَّدِ
تنادوا فقالوا: أَرْدَتْ الخيل فارسًا فقلـــت: أعبـــد الله ذلكُمـــُ الرَّدِي؟
فإن يك عبــد الله خلَّـــى مكانـــهُ فمـــا كـــان وقـــافًا ولا طائِشَ اليدِ

ومضى دريد معددًا خصال أخيه عبدالله في نفس طويل ولوعة حارة وتصوير دقيق وأداة متمكنة، وهو في رثائه يعدد صفاته الجليلة وشجاعته، وثباته، ويصف فجيعته بمقتل أخيه أما مناظريه وهو يدعوه، ودريد من هول الصدمة يدافع الخيل ليصل إلى أخيه وينجده، عندما يسقط يتساءل هل هو من مات؟[4].

وعندما يعاتبه الناس على رثائه لأخيه يجيبهم قائلاً:

أعاذلتي كلّ امرءٍ وابنَ أمّهِ متاعٌ كزاد الراكب المتزوّدِ[5]

(١) ابتسام مرهون الصفار، مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٦٨، ص:١٢٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٢٦.
(٣) دريد بن الصمة، الديوان، تحقيق: عمر عبد الرسول، دار المعارف، مصر، ١٩٨٠م، ص٩٦.
(٤) كرم البستاني، المجاني الحديثة، ط، الآداب الشرقية، بيروت، ١٩٥١م ج١، ص٢٧١.
(٥) دريد بن الصمة، الديوان، ص:٩٦.

فقد كان دريد يحسب أخاه مثل ذات أخرى له، رضعا ثديا واحدا، وخرجا من رحم واحد . وذكر اللبان في ذلك المقام يمثل الحتمية الدموية والنفسية والمصيرية التي كانت توثق بينهما . ولم يسبق للشاعر أن عارض أخاه، فالصفاء بينهما مقيم ولا حاجة لتجديده . لقد كانا متصافيين – وهو لشدة تلهفه على أخيه كان يتوقع الأشياء قبل أن تقع – وحين سمع العويل والصياح والتنادي بالموت، سأل: أليس عبد الله الذي مات ؟ لقد كانت غريزته توحي له، وتدفعه إلى ذلك اليقين . إنه هرع إليه ،فألفى الرماح تنوشه، ولها وقع كخشخشة الصياصي في الثوب حين ينسج . أنه المشهد الذي كان يخشاه – فأخوه لم يقتل هاربا، بل قتل في قلب المعركة، اجتمع عليه الأعداء، وتألبوا، وأحدقوا به . هكذا يموت البطل الرماح تناله من كل جهة، ولا يفر ولا يكل – أخذ يجول حول أخيه كما تجول الناقة الثاكل حول البول – فشرع يطعن الفرسان حتى انجلوا.

كما نلاحظ أن الشعراء كانوا في رثائهم معنيين بإبراز أثر فقدان الميت بالنسبة للإحياء وغالباً ما يرتبط ذلك بالاستفهام الذي يكشف الشاعر من خلاله عن إحساس بنوع من التصدع في البنيان الاجتماعي يقول المهلهل بن ربيعة[1]:

أكليب من يحمي العشيرة كلها ... أو من يكر على الخمبس الأشوس
من للأرامل واليتامى والحمى ... والسيف والرمح الدقيق الاملس

وتقول الخنساء:

فمن لقرى الأضياف بعدك إن هم ... فناءك حلوا ثم نادوا فأسمعوا
ومن لمهم حل بالجار فادح ... وأمر وهي من صاحب ليس يرفع
ومن لجليس مفحش لجليسه ... عليه بجهل جاهداً ينسرع[2]

فهذا الاستفهام يكشف عن حيرة الشاعر الحقيقية أو النموذجية عند رثائه عزيزا أو عظيماً فالإنسان النافع لابد أن يمثل خسارة جسيمة في قومه حين يفقدونه.

وكان مقتل فارس من فرسان القبيلة يعد كارثة لها، لأنها فقدت شجاعته وقوته، كما أنها فقدت مثلا يحتذى في الفروسية، ويقف الشاعر يرثي هذا الفارس، ويبين أثر فقده على القبيلة . وقد صور قَطَنُ بن نهشل الأرض قد اضطربت، ومادت بعد ان قتل أخوه جندل، فأصبح كمن بترت إحدى يديه، قال[3]:

(١) لويس شيخو، شعراء النصرانية في الجاهلية، دار المشرق، ص:١٧١.
(٢) الخنساء، ديوان الخنساء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط،٢٠٠٦م .
(٣) ثعلب، أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني، مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، ٢١٨ .

وذَاكَ أَبُـو لَيْلَى أَتَانِي نَعْيُهُ
فَكادَتْ بِيَ الأَرْضُ الفَضَاء تَضَعْضَعُ
كسَاقِطَةِ إِحْدَى يَدَيهِ فَجَانِبٌ
يُعـاشُ بِهِ مِنْـهُ وآخَـرُ أَضْلَعُ

ويعرض عبد الله بن عنمة الضبي صورة لفارس بكر، بسطام بن قيس الذي سقط قتيلا يوم «نقا الحسن» وكان عبد الله منقطعا إلى أخواله بني شيبان، مبينا في مرثيته ما امتاز به بسطام من فروسية ونبل وكرم وشجاعة، وكيف خرّ صريعا، ويحقُّ لقومه أن يجزعوا عليه لأنهم فقدوا بطلا مطعاماً مقداماً، فقال [1]:

لأمِّ الأرْضِ وَيْلٌ مَا أجنتْ ... غَدَاةَ أَضَرَّ بِالحَسَنِ السَّبِيلُ
نُقَسِّـمُ مَالَـهُ فِينَا وَنَدْعُو ... أَبَا الصَّهْبَاء إِذْ جَنَحَ الأَصِيْلُ

إلى أن يقول :

فَخَرَّ عَلَى الألاءة لَـمْ يُـوسَّدْ ... كأنَّ جَبِينَـهُ سَيْـــــفٌ صَقِيـــلُ
فَإِنْ تَجْـزَعْ عَلَيـــهِ بَنُـــو أَبِيهِ ... لَقَدْ فُجِعُـــوا وَفَاتُهُمُ جَلِيـــلُ
بِمطْعَامٍ إِذا الأَشْـــــوَالُ رَاحَـــتْ ... إِلَى الحُجْرَاتِ لَيْسَ لَهَا فَصِيلُ
ومِقْـــــدَامٌ إِذَا الأَبْطَالُ خـامَتْ ... وعَـــرّدَ عَـنْ حَلِيْلَتِـهُ الحَلِيـلُ

ورثى كعب بن سعد الغنوي أخاه أبا لغور بقصيدة قال فيها الأصمعي : «ليس في الدنيا مثلها[2]» وقال ابو هلال العسكري: « قالوا: ليس للعرب مرثية أجود من قصيدة كعب بن سعد التي يرثي فيها أخاه أبا المغوار[3] «فقد أشاد بالقيم الأخلاقية، والمثل العليا التي كان أخوه يحرص عليها، ونعته بالحلم، والجود، والعزة، والحلم، والهيبة، ومما قاله[4]:

أخي مـا أخـي لا فاحش عند بيته ... ولا ورع عنـــــد اللقـاء هيـوب
هو العسـل المـاذي حلما ونائلا ... وليث إذا يلقى العـدو غضـوب

(١) الأصمعي، أبوسعيد عبد الملك بن قزيب الأصمعي، دار الأرقم بن أبي الارقم، بيروت، لبنان،٢٠١٦م، ص ٣٦-٣٧ .

(٢) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان ٢٠١٠م، ص:٨١.

(٣) أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، ٢ تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م،٢/ ١٧٢

(٤) الأصمعي، الأصمعيات، ص ٩٥-٩٦ .

لقد كان أمـا حلمه فمـروح ... علينـا و أمـا جهله فغريـب
حليم إذا ما سورة الجهل أطلقت ... حبى الشيب للنفس اللجوج غلوب

إلى أن يقول :

حبيب إلـى الخـلان غشيان بيتـه ... جميل المحيا شب وهـو اديـب
يبيت الندى يا أم عمرو ضجيعـه ... إذا لم يكن فـي المنقيـات حلوب
إذا نزل الأضياف أو غبـت عنـهم ... كفى ذاك وضـاح الجبين أريـب
وداع دعا: يا من يجيـب إلى الندى ... فلم يستجبـه عنـد ذاك مجيـب
فقلت أدع أخرى وارفع الصوت دعوة ... لعل أبا المغـوار منـك قـريب
يجبـك كمـا قـد كـان يفعـل أنه ... بأمثالهـا رحـب الـذراع أريـب

٢ـ رثاء الأمم:

إنّ اتجه الشعراء الجاهليون في بعض مضامين قصيدة الرثاء اتجاهًا جديداً رائداً، وفتحوا في هذا الفن باباً جديداً، من خلال التأمل الذاتي الذي انبثق عن الاتعاظ بالأمم البائدة، والملوك الذين قهرهم الموت بعد ارتفاع شأنهم ،وعلو مكانتهم، وعز سلطانهم .

فقد اتعظ الأسود بن يعفر النهشلي، ووعظ غيره، بمن سبقه من الملوك العظام، والأمم القوية، فاتعظ بآل محرق (المناذرة) وبإياد، الذين كانوا نموذجا للعز والثراء، والجاه والجود، فكان ملكهم ثابتا قويا مستقرا، وبآل غَرْف الذين كانوا رمزا للقوة، فما أغنت هؤلاء قوتهم، ولا أغنى أولئك جاههم، وصاروا جميعا إلى «بلى ونفاد»، فقال[1]:

مـاذا أؤمـل بعـد آل محـرق ... تركـوا منـازلهـم وبعـد إيـاد
أهل الخورنق والسـدير وبـارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد
أرضـا تخيرهـا لـدار أبيهـم ... كعب بن مامـة وابـن أم دؤاد
جرت الرياح على مكان ديارهم ... فكأنمـا كانـوا علـى ميعـاد
ولقد عنـوا فيهـا بأنعـم عيشـة ... في ظل ملـك ثابـت الأوتـاد
أين الذين بنـوا فطـال بناؤهـم ... وتمتعـوا بالأهـل والأولاد
فإذا النعيـم وكـل مـا يلهى به ... يومـاً يصيـر إلـى بلـى ونفاد

(١) المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق، أحمد محمد شاكر،ط٢، دار المعارف،القاهرة، ٢٠١٩م، ص ٢١٦ .

في آل عرف لو بغيت لي الأسى ... لوجدت فيهم أسوة العداد
فتخيروا الأرض الفضاء لعزهم ... ويزيد رافدهم على الرفاد

٣- رثاء النفس :

ويظهر هذا اللّون من الشعر في رثاء الشعراء أنفسهم، وندبهم حياتهم، ويلمس المرء في هذا الاتجاه إحساسا قويا، ويدرك عاطفة متميزة،ولأن هذه الظاهرة متعلقة بالشاعر نفسه، فهو صاحب المصير المحتوم، ومَنْ أولى برثائه منه فلا غرابة إذا وجدنا العاطفة تتدفق بغزارة، وتنبعث بقوة مجسدة آماله في الحياة، مصورة نهايته التي أدرك أنه ملاقيها.

ولعل قصيدة يزيد بن الحذاق التي أسف فيها على نفسه أول شعر قيل في هذا الباب، فقد تخيل ما سيصنع به أهله بعد الموت، من ترجيل شعره، وإدراجه في الكفن، واختيار أفضل الفتيان ليتولوا دفنه في ضريحه، ولعله قد انفرد بهذا التصوير المفصل لهذه الحال بين الشعراء، وهو لم يقف في قصيدته عند هذا الموقف من ظاهرة الموت، التي نظر إليها هذه النظرة، وإنما حاول أن ينتفع من تجربة الحياة التي عاشها، فنراه يقدم النصيحة للذين يستقبلون الحياة، فهو يهون شأن المال، لأنه سوف ينتهي إلى الوارث، فيقول[1]:

هلْ لِلفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهرِ مِنْ وَاقِ ... أمْ هلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ المَوْتِ مِنْ رَاقِ
قدْرَجلُونِي ومَا رَجلتُ مِنْ شَعثٍ ... وألْبَسُونِي ثِيَاباً غَيرَ أخْلاقِ
ورَفعُونِي وقَالُوا: أيّمَا رجل ... وأدْرجُونِي كأنّي طَيّ مِخْرَاقِ
وأرسلوا فتية من خيرهم حسبا ... ليسندوا في ضريح الترب أطباقي
هوّن عليكَ ولَا تولَع بإشْفَاقٍ ... فإنَّمَا مَالنَا لِلوَارِثِ البَاقي
كأنَّنِي قَدْ رَمَانِي الدَّهرُ عَنْ عَرضٍ ... بِنَافِذَاتِ بِلا رِيشٍ وأفْوَاقِ

أما القصيدة الثانية فهي قصيدة عبد يغوث بن وقاص الحارثي، وكان من خبره أنه أسر يوم الكُلاب الثاني، وكان قائد قومه مذحج، وأراد أن يفدي نفسه فأبت بنو تميم إلا أن تقتله بالنعمان بن جساس، ولم يكن عبد يغوث قاتله، ولكن قالت تميم: قتل فارسنا، ولم يقتل لكم فارس مذكور . وكانوا قد شدوا لسانه بنسعة لئلا يهجوهم، فلما لم يجد من القتل بدا طلب اليهم أن يطلقوا لسانه، فقالوا: إنك شاعر، ونخاف أن تهجونا، فعقد لهم ألا يفعل، فأطلقوا لسانه، وأمهلوه حتى قال القصيدة، ثم قتلوه، بأن قطعوا له عرقا يقال

(١) المفضل الضبي، المفضليات: ص ٢٩٩ .

له الأكحل، وظل ينزف حتى مات[1].

وفي هذه القصيدة من الصدق العاطفي، وسلامة الأداء ما يجعلها خليقة بالاهتمام. وأول ما يطالعنا في هذه القصيدة ارتباط الشاعر بأصدقائه، وأبناء عشيرته. هذا الارتباط دفعه إلى تذكرهم منذ المطلع،وذكرهم بأسمائهم في صورة من صور التحسر، والحزن الذي ملأ قلبه[2]:

فَيا رَاكِباً إمَّا عَرضْتَ فَبَلِغَنْ نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَان أَلَا تَلاقِيَا

أَبَا كرب والأيْهَمينِ كِلَيْهِمَا وقَيْساً بِأَعْلَى حَضرَموت اليَمَانِيَا

ويلتمس الشاعر تفسيراً لحالة الضعف التي أصابته حين يردها إلى العلاقة القبلية التي تفرض على الشاعر ضربا من السلوك لا ينبغي له تجاوزه حتى في حالات الموت . فالشاعر مقدم في القبيلة، كما هو معروف، وهي تعلق عليه آمالها في السلم والحرب، فلا يجوز له أن يخذلها، أو يتهاون في نصرتها. فإذا اجتمع للشاعر، بجانب هذه المكانة، سيادة القبيلة،كما اجتمع لعبد يغوث، وجب عليه أن يظلّ حامياً لها مدافعًا عن مكانتها، ولو أدّى به إلى الوقوع في ضيق أو أسر أو موت. لذلك فإنّ الشاعر يؤكد هذه الظاهرة الموضوعية حين يبرّر وقوعه في الأسر بسبب دفاعه عن ذمار القوم، وعدم استسلامه في أحلك ساعات الحرب حيث الرماح تختطف المتقدمين من المحاربين :

ولو شئت نجتني من الخيل نهدة ترى خلفها الحو الجياد تواليا

ولكنني أحمي ذمار أبيكم وكان الرماح يختطفن المحاميا

إنّ فروسية الشاعر وبطولته من أجل قبيلته سبب مقنع للعزاء الذي يلتمسه لنفسه . ونحن إذ نقرر أنّ للفروسية قداسة تواضع عليها المجتمع الجاهلي فهي فروسية محكمة الوسيلة والغاية، فالوسيلة هي استعداد الفارس للدفاع عن قومه، والغاية هي تحقيق الحياة الكريمة، أو الموت الكريم، وهذه هي أخلاق الفروسية التي تمثلت في عبد يغوث الحارثي.

ونطالع في القصيدة خلقا آخر من أخلاق الفروسية مثلته القصيدة تمثيلا واضحا، حين أدار الشاعر حوارا مع أعدائه حول قضية أسره، إنه يسعى لإقناعهم بالإبقاء عليه، لأنه ليس ممن يقاد بدم غيره، كما أنه ليس مسئولا عن قتل زعيمهم .وليعلموا أن قتلهم اياه يعني قتل رجل سيد في قومه . ان مثل هذه القيم التي تواضع عليها الجاهليون تجعل من النص وثيقة لشعر الفروسية . ونراهم في الوقت نفسه يأخذون على

(١) ابن عبد ربه الأندلسي العقد الفريد، تحقيق، محمد سعيد العريان، دار الاستقامة، القاهرة، ٥/ ٢٨٨ .

(٢) المفضل الضبي، المفضليات، ص ١٥٥.

الشاعر عهدا بعدم هجائهم، فيربطون على لسانه بنسعة، تعجزه عن القول، وتمنعه من الكلام :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة ... أمعشر تيم أطلقوا لي لسانيا
أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا ... فإن أخاكم لم يكن من بوائيا
فإن تقتلوني تقتلوا بي سيداً ... وان تطلقوني تحربونيبماليا

فخر الشاعر بنفسه، والاعتداد بها، وتذكره أيامه الخوالي، أيام القوة والعطاء من ابرز المظاهر الموضوعية في القصيدة . إنه يستحضر صورة الماضي الماثل في نفسه حين كان يخوض غمار المعارك، فتصوب الرماح إليه من كل جانب :

وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا ... لبيقا بتصرف القناة بنا نيا
وعادية سوم الجراد وزعتها ... بكفي وقد أنحوا إلي العواليا
كأني لم أركب جوادا ولم أقل ... لخيلي كري نفسي على رجاليا

إن بواعث الفخر في مرثية عبد يغوث مرتبطة بموقف نفسي، فالشاعر في لحظات الموت قد أحس بالانكسار الشديد، وإنه صار أمثولة للقوم، ومبعثا للسخرية والضحك والاستهزاء :

وتضحك مني شيخة عبشمية ... كأن لم تر قبلي أسيرا يمانيا

إنّه يرفض هذا الموقف، كما يرفض الاستسلام لسطوة الموت أصلاً، فهو يسعى ليخلق توازناً للذات، يخفف عنه ألم المصاب، إنه يهرب من حالة الضعف إلى حالة القوة، فإذا تمثلت حالة الضعف لديه بالأسر، أو انتظار الموت، فإن حالة القوة تتمثل له بالاعتداد بالنفس، واستحضار صور الشجاعة المتحدرة من ماضيه والماثلة في ذاكرته . لذلك فالفخر هنا عزاء للنفس، وأكرام لها في لحظة من لحظات الهزيمة، تلك اللحظات التي لا تتبدل إلا بالانتقال من النقيض إلى النقيض.

والقصيدة الثالثة التي سنقف عندها، هي قصيدة بشر بن أبي خازم الأسدي، فقد ذكر في أسباب قولها أن غلاماً من الأبناء رمى بشراً بسهم فأثخنه، والأبناء: وائلة ومرة ومازن وغاضرة، فكل ولد صعصعة غير عامر يسمّوْن الأبناء – والغلام من بني وائلة بن صعصعة. وأنّ بشرا أسر الوائلي، ثم أيقن بشر أنه ميت، فأطلق الغلام في بعض الطريق، وقال: انطلق، وأخبر أهلك أنك قتلت بشر بن أبي خازم . ثم اجتمع إليه أصحابه، فقالوا له: أوص . فقال هذه القصيدة، يرثي بها نفسه، ويفخر بها وبقومه، وهي من جيد شعر العرب[1]:

أسائلة عميرة عن أبيها ... خلال الجيش تعترف الركابا

(١) ابن أبي خازم الأسدي،، بشر ديوانه: تحقيق د. عزة حسن، دار الشرق العربي،١٩٦٠م، ص ٢٥.

تؤمل أن أؤوب لها بنهب ... ولم تعلم بأن السهم صابا
فإن أباك قد لاقى غلاماً ... من الأبناء يلتهب التهابا
وان الوائليّ أصاب قلبي ... بسهم لم يكن يكسى لغابا
فرجّي الخير وانتظري إيابي ... إذا ما القارظ العنزي آبا
فمن يك سائلاً عن بيت بشر ... فإن له بجنب الرده بابا
ثوى في ملحد لا بد منه ... كفى بالموت نأياً واغترابا
رهين بلى وكل فتى سيبلى ... فأذري الدمع وانتحبي انتحابا
مضى قصد السبيل وكل حي ... إذا يدعى لميتته أجابا
فإن أهلك عمير فرب زحف ... يشبه نقعه عدوا ضبابا

وللأسود بن يعفر النهشلي جهود فنية في هذا الاتجاه ،فرأى الدهر يهجم عليه، ويسلبه فرحته، ويحرمه من ثيابه الفاخرة، ونراه يمد يده إلى سيد قبيلته مستنجدا، وليس ثمة ما يجدي أمام سطوة الموت وجبروت الدهر، فإنه يفعل ما يشاء، فليس ثمة مناص من الموت ساعة دنو الأجل، ولا يملك المرء إلا الخضوع والاذعان، قال[1]:

ألا هل لهذا الدهر من متعلل ... سوى الناس مهما شاء بالناس يفعل
فما زال مدلولا على مسلطاً ... ببؤسي ويغشاني بناب وكلكل
وألفى سلاحي كاملا فاستعاره ... ليسلبني نفسي أمالَ بنَ حنظل
فإن يك يومي قد دنا واخاله ... كواردة يوماً على غير منهل

أمّا عبيد بن الأبرص فيبدو أنه كان مكثرا في هذا الاتجاه، فعندما أتى عبيد إلى المنذر بن ماء السماء في يوم بؤسه، الذي أقسم أن يقتل أول مَنْ يراه فيه، فعزم على قتله، واستنشده قبل ذلك، فقال: أنشدني قبل أن أذبحك، فقال عبيد: والله أن متّ ماضرني . فقال له: لابد من الموت، فاختر من الأكحل، وان شئت من الأبجل، وإن شئت من الوريد، فقال عبيد: ثلاث خصال كسحابات عاد: واردها شر وارد، وحاديها شر حاد، ومعادها شر معاد، ولا خير فيها لمرتاد . فإن كنت قاتلي فاسقني الخمر، حتى إذا ذهلت ذواهلي، وماتت لها مفاصلي، فشأنك وما تريد . ففعل به ما أراد، فلما دعا به ليقتله أنشد هذه الأبيات [2] . ثم أمر

(١) ابن أبي خازم الأسدي، بشر ديوانه، ص ٥٦ .
(٢) ابن أبي خازم الأسدي، بشر ديوانه، ص ٨.

به المنذر ففصد، فنزف دمه حتى مات :

وخيرني ذو البؤس في يوم بؤسه ... خصالا أرى في كلها الموت قد برق[1]
كما خُيرتْ عاد مـــن الدهر مرة ... سحائب مـــا فيها لـذى خيـرة أنق
سحائـب ريـح لـم توكّل ببلـدة ... فتتركهـا الا كمـا ليلـة الطلـق

وقيل لما أراد المنذر بن ماء السماء أن يقتل عبيدا، قال له: أنشدني قولك :

« اقفر من أهله ملحوب» فقال عبيد:

أقفر من أهله عبيد ... فاليوم لا يبدي ولا يعيد
عنت له منية نكود ... وحان منه لها ورود

ثم قال يرثي نفسه[2]:

يا حار ما راح من قوم ولا ابتكروا ... الا وللموت في آثارهم حادي
يا حار ما طلعت شمس ولا غربت ... الا تقـــــرب آجـــــال ليعـاد
هل نحـــــن الا كـأرواح تمـــــر بها ... تحت التراب وأجساد كأجساد

٤- رثاء القبيلة:

الشاعر ارتبط بقيلته ارتباطاً وثيقاً، فكان لسانها المفاخر بها في السلم، وشعلتها التي تُضرم النار في النفوس في ساعة الحرب، ومن جرّاء الحروب سقط القتلى بالمئات من القبائل، وفقدت القبائل أبطالها وساداتها ورجالها، ومن هنا برز فن رثاء القبيلة وحمل الشعراء هذا اللواء[3].

ومن أمثلة هذا النوع من الرثاء ما سطره الشاعر عبيد بن الأبرص في رثاء موتى قومه، يقول[4]:

لِمَنْ طَلَلٌ لَمْ تَعْفُ عنهُ المَذَانِبُ ... فجنـــبا حـــبرٍ قـــدْ تعفّى فَواهِبُ
ديارُ بني سَعدِ بن ثعلبـةَ الأُلى ... أذاعَ بهـــم دَهرٌ على النّاسِ رائِبُ
فأذهَبَهُم ما أذهبَ النـاسَ قَبلهُمْ ... ضِراسَ الحُروبِ والمنـايا العَواقِبُ

(١) نفسه: ص ٩٩
(٢) نفسه: ص ٧٢ .
(٣) محمود حسن أبو ناجي، الرثاء في الشعر العربي،ط بيروت ،دار مكتبة الحياة، ١٩٨١م ص٧٧.
(٤) غازي طليمات وعرفات الأشقر، تاريخ الأدب العربي ـ الادب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه،ط١، دار الإرشاد ن ١٩٩٢م، دمشق، سوريا،ص٢٠٢

ونلاحظ على الرثاء القبلي بجانب الحزن يسيطر على ابيات الرثاء المفاخرة بالقبيلة، ومهما تكن درجة الغضب في النفوس قبل الحرب، فإنّها تنطفئ بعد الحرب بسبب حقيقة الموت التي يتمثلونها أمامهم والتي تطفئ نار الغضب، وتذهب الحماسة، وتبقى الحقيقة الوحيدة الماثلة أمام العيون حقيقة الموت، فيرتقي الشاعر إلى أفق إنساني تذوب فيه العصبية، وتزول الفوارق، ويرثون العدو مثل رثائهم أهلهم وقبيلتهم، فرنائهم ليس للبكاء على الموتى، وإنّما للتمسك بالحياة وإبقاءهم عليها(١).

وتتجلّى العصبية القبلية عبر لحظات الأسى عند الجاهلي، حيثُ الذات تتجرّع الألم نتيجة الإحساس بالمصير الجماعي والالتحام به(٢)، ومن ذلك يقول دُريد بن الصمة:

تقولُ ألا تبكي أخاكَ وقدْ أرَى ... مكانَ البُكا لكنْ بُنِيتُ على الصبرِ
لَمقتَلِ عبدُ اللهِ والهـالِكِ الذي ... على الشّرفِ الأعلَى قتيلِ أبي بَكرِ
وعبدِ يغُوثٍ أو خَلِيلَيَ خـالد ... وَعـزَّ مُصَـاباً حَثْوُ قَبرٍ على قَبْرِ
أبَى القَتـلُ إلّا آلَ صِمَّـةَ إنَّـهم ... أبَـوا غَيرَهُ والقَـدْرُ يجرِي على القَدْرِ
فإمّـا تَرَيَنا مـا تزالُ دمـاؤُنا ... لَـدَى واتِـرٍ يَشقَـى بها آخِرَ الدَّهرِ
فإنّا للحـمِ السيفِ غيرَ نكِيرةٍ ... ونُلحَمُهُ حيناً وليـسَ بذي نُكرِ(٣)

يرى الدارس أن الأسى استطاع أن يأخذ ذات الشاعر بعيداً عن فرديتها في مشهد الفجيعة، وهي في قلب الأسى، حيث مشهد تتابع صور الموت عليها (حثو قبر على قبر)، تحاول إعادة بناء عالمها على وهج العصبية من خلال تحويل القدر الفردي إلى قدر جماعي (فإنّا للحم السيف)، والتحوُّل من الماساة الشخصية إلى المأساة الجماعية، غذ الموت قتلاً قيمة من القيم العليا في الإستراتيجية الروحية للجاهليين، وهو جزء من ثقافة الحياة التي تستحوذ عليها القوة(٤).

ويقول دريد أيضاً:

يُغُـارُ علينـا واتـر ينفيُشْتَفَى ... بنا إنأُصِبْنا أونُغـيرُع ليوتْرِ
بذاك قَسَمْنا الدَّهْرَ شَطْر يْنقِسْمةً ... فما ينقَضي إلا ونحنُ على شَطْرِ(٥)

(١) المرجع السابق، ص٢٠٣.
(٢) وهب رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦م، ص٢٧٢.
(٣) دريد بن الصمّة، الديوان، دار المعارف، مصر، ١٩٨٥م، ص٩٥ – ٩٦.
(٤) وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦م،ص٢٧٣.
(٥) دريد بن الصمّة، الديوان، ،ص٩٧.

وتؤبِّن عاصية[١]البولانية من قُتل من قومها بالدموع المنهمرة، مازجة رثاءها بالهجاء والانتقاص من قاتليهم، تقول[٢]:

أعاصي جُودِي بِالدّمُوعِ السّوَاكِبِ ... وبَكّي لكِ الويْلات قَتْلَى مُحاربِ
فَلـــوْ أنّ قومِـــي قَتَّلتْهُم عمـــارة ... مِن الســـرَوَاتِ والرؤُوِ الذَّوَائِبِ
صَبَرنَا لِمَا يَأتِي بِهِ الدَّهـرُ عامِدَاً ... ولكنَّـمَـا أثـــأرَنَـــأ في مُحَارِبِ
قَبِيـــلَ لِئَـــامٍ إنْ ظَـهَرْنَا عَليْهُمُ ... وإنْ يَغْلِبُونَا يُوجَدُوا شـرَّ غَالِـــبِ

فالشاعرة تنادي نفسها قاصدة التنبيه والتنويه لعِظم رزيتها بقومها، وهي ترخم امها (عاصي) دلالة على المرض الذي أصابها جرّاء الحزن الذي اصابها بفقد أفراد قومها، فهي كريمة بسكب الدموع، وهي «لها الويلات» اي الهلاك والمشقة من العذاب الذي ضاغقه عليها أن قاتلي قومها ليسوا من أندادهم الأكفاء، بل هم من قبيلة «محارب بن خصفة بن قيس عيلان» وهي قبيلة محقورة عند العرب، فإن ظفر قومها بهم لم يستحقوا الافتخار للؤم عدوّهم، وإن هم غلبوا قومها وُجِدوا شرّ غالب[٣].

٥- رثاء الأصدقاء :

لفتت مراثي أوس بن حجر أنظار العلماء، فتناقلت المصادر تقديمهم لعينيته في رثاء صديقه فضالة بن كلدة الأسدي التي يقول في مطلعها[٤]:

أيتها النفس أجملي جزعاً ... إنّ الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمع السماحة وال ... نجدة والحزم والقوى جمعا
الألمعي الذي يظن لك ... ظن كأن قد رأى وقد سمعا

فقد قال الأصمعي :لم أسمع ابتداء مرثية أحسن منها. وقد قدم أوس نموذجاً فنياً رائداً في المزج بين مرثاة المديح، ومرثاة التفجع، فقد عني بتصوير مناقب المرثيمن شجاعة وكرم ومكانة اجتماعية، حاول من خلالها أن يرسم الصورة المثلى التي احتلت استشراف أكثر الشعراء الجاهليين للشخصية العربية الكاملة.

(١) -. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٦، د. ت، ص٤٠٠.

(٢) التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ج٢، ص٩٢١ - ٩٢٢.

(٣) ابن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق: نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان،، ج٢، ص٥٢٦.

(٤) أوس بن حجر، ديوانه، تحقيق محمد يوسف نجم، ط، بيروت ص ٥٣ .

ويتميز أوس بدقة تناوله للصورة المؤدية إلى استكمال أبعاد اللوحة في رثائه بوجه خاص، وذلك مايطالعنا في مثل الصورة الاستطرادية التي حاول أن يشخص كرم فضالة من خلالها فقال :

والحافظ الناس في تحوط إذا ... لم يرسلوا تحت عائذ ربعا
وازدحمت حلقتا البطان باقـ ... ـوام وطارت نفوسهم جزعا
وعزت الشمأل الرياح وقد ... أمسى كيمع الفتاة ملتفعا
وشبه الهيدب العبام من الـ ... أقوام سقبا ملبسا فرعا
وكانت الكاعب الممنعة الـ ... ـحسناء في زاد أهلها سبعا

ويشيع في مراثي أوس ضرب نادر من المديح النفسي يتمثل في وصف المرثي بحسن الظن، والقدرة على كشف خفايا الأمور، وإعطاء الرأي الفصل فيها، ولعل أروع ما ورد قوله :

الألمعي الذي يظن لك الظـ ... ـــــن كأن قد رأى وقد سمعا

ويبدو أن طبيعة موضوع الرثاء أتاحت لأوس أن يطرح الحيطة في بعض صور المبالغة من مديحه للمرثي، فهو لا يبالي أن يقول في فضالة[1]:

ألم تكسف الشمس والبدر والـ ... ـكواكب للجبل الواجب
على الأروع السقب لو أنه ... يقوم على ذروة الصاقب
لأصبح رتما دقاق الحصى ... كمتن النبي من الكاثب

ورثى الأسود بن يعفر النهشلي صديقه مسروق بن المنذر بن نهشل، الذي «كان سيدا» جوادا، مؤثرا للأسود، كثير الرفد له والبر به. وجاءت صورة مسروق امتدادا للصورة التي رسمها أوس لصديقه فضالة، وهي الصورة المثلى التي كان الشعراء يحاولون تثبيتها في العرف الاجتماعي القبلي، فهو رجل شجاع، كريم، يحدب على الأرامل واليتامى، ويقدم لهم الجفان العظيمة، فيقول[2]:

أقول لما أتاني هلك سيدنا ... لا يبعد الله رب الناس مسروقا
من لا يشيعه عجز ولا بخل ... ولا يبيت لديه اللحم موشوقا
مردى حروب إذا ما الخيل ضرجها ... نضخ الدماء وقد كانت أفاريقا
والطاعن الطعنة النجلاء تحسبها ... شنا هزيا يمج الماء مخروقا

(١) الأسود بن يعفر، ديوانه، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٧٠م: ص ١٠-١١ .
(٢) الأسود بن يعفر، ديوانه، ص ٥٢ .

وجفنة كنضيح البئر متألقة ترى جوانبها باللحم معتوقا
يسرتها ليتامى أو لأرملة وكنت بالبائس المتروك محقوقا
يا لهف أمي إذ أودى وفارقني أودى ابن سلمى نقي العرض مرموقا

وخلاصة الأمر إنّ شعر الرثاء من أصدق وأنبل أنواع الرثاء، لأنّه يصدر عن نفسٍ مكلومة، وقلبٍ يتقطّع من فرط الألم، والرثاء يتنوّع بتنوُّع المرثي والراثي، فهنالك رثاء الأخ والزوج والزوجة والأبناء والآباء والأمهات، وهذا كله يُطلق عليه الرثاء الفردي، أما رثاء القبائل والدول والبلدان فهو ما يُعرف بالرثاء الجماعي. والراثين كانوا رجالاً ونساء، ولكن كثُرت أشعار النساء في المراثي لرقة شعورهن وصدق عاطفتهن، ولأنّ الرجال لا يستطيعون إظهار عواطفهم ومدى لوعتهم وحزنهم كيلا يوصفون بالضعف، فالرجل في الجاهلية كان رمز الصبر والتجلد والتحمُّل؛ لذلك يرى الباحث أنّ معظم شعر الرثاء تناولته النساء الشاعرات كثيرا.

خاتمة

الحمد لله الذي علم آدم الأسماء كلها، وعلم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، وخلقه وعلمه البيان، وفضله بنعمة العقل على سائر الأكوان وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، فاحمد الله سبحانه وتعالى أن وفقني على إكمال هذه الدراسة عن موضوعات الرثاء في العصر الجاهلي، توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

١. تنوعت موضوعات شعر الرثاء في العصر الجاهلي وذلك بتنوع الشخص المرثي الذي فقده الشاعر المرثي.

٢. رثاء الابن كان شديد التأثير في النفس الإنسانية وذلك لما يحمله من عواطف صادقة صادرة من قلب الأم والأب

٣. في رثاء الأخ تظهر صور الحزن والأسى والألم والحسرة

٤. في رثاء الجاهليين عدم تبديل الحقائق وإيرادها كما هي وعدم استخدام الصور إلا إذا كانت تخدم توضيح المعني

٥. استعان الشعراء ببعض المحسنات اللفظية والمعنوية للتأثير بسامعيهم؛ شعر الرثاء أغلبه ذاتي يعبر عن وقائع حقيقية ومعانيه ملموسة

٦. أظهر شعراء الرثاء البكاء كصورة تعبيرية عن آلامهم النفسية لم فقدوا.

توصي الدراسة بالآتي:

١. البحث عن مظاهر الرثاء في العصرين الجاهلي والإسلامي.

٢. دراسة مقدمات قصيدة الرثاء في الشعر الجاهلي.

٣. توضيح صور الرثاء في العصر الإسلامي ومقارنتها بالجاهلي لإظهار أوجه الاتفاق

المصادر والمراجع

١. ابتسام مرهون الصفار، مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٨.

٢. ابن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق: نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان.

٣. ابن عبد ربه الأندلسي، شهاب الدين أحمد العقد الفريد، ط١، الأزهرية المصرية، ١٩٢٨م.

٤. ابن فارس، أو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩، ج٢.

٥. ابن منظور، جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم الأنصار الأفريقي، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، الثاء، ط١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.

٦. أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، ٢ تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م.

٧. بشر بن أبي خازم، ديونه، تحقيق، مجيد طراد، ط١،١٩٠٠م دار الكتاب العربي، ص ١٢٣, ١٥١و ١٧٤.

٨. التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، دار الكتب العلمية،بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ج٢.

٩. ثعلب، أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني، مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف مصر، ١٩٦٠م.

١٠. حاتم الطائي، ديوانه، شرح ونقديم، أحمد رشاد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،

١١. حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي، مؤسسة المختار، القاهرة ط١،٢٠٠١م.

الخنساء، ديوان الخنساء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط،٢٠٠٦م.

١٢. دريد بن الصمة، الديوان، تحقيق: عمر عبد الرسول، دار المعارف، مصر، ١٩٨٠م.

١٣ الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، الكويت، د. ت، ج١٠.

١٤. الزمخشري، جار الله محمود، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، ج١.

١٥. عمرو بن كلثوم، ديوانه، الدار المصرية اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.

١٦ عمرو بن كلثوم، ديوانه، دار القلم، بيروت، لبنان، ط،١٤١٤.

غازي طليمات، عرفات الأشقر، الأدب الجاهلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢ .

١٧. غازي طليمات وعرفات الأشقر، تاريخ الأدب العربي. الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه،ط١، دار الإرشاد ن ١٩٩٢م، دمشق، سوريا.

١٨.كرم البستاني، المجاني الحديثة، ط، الآداب الشرقية، بيروت، ١٩٥١م ج١، ص٢٧١.

١٩.لويس شيخو، شعراء النصرانية في الجاهلية، دار المشرق، ١٧١.

٢٠.محمود حسن أبو ناجي، الرثاء في الشعر العربي،ط بيروت ،دار مكتبة الحياة، ١٩٨١م

٢١. المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان ٢٠١٠م.

٢٢. المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، شرح ديوان ديوان الحماسة لأبي تمام ،ط١، دار الكتب العلمية،٢٠٠٣م، ٧٩٧/٢ .

٢٣.النابغة الذبياني، ديوانه، دار المعارف مكتبة التراث الإسلامي.

٢٤.الهروي، محمد بن أحمد بن الأزهري أبو منصور، تهذيب اللغة تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م،، ج٢.

٢٥.وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦م.

٢٦.الأسود بن يعفر، ديوانه، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٧٠م.